

## إطالة على الصّلات بين مصر وشمال غرب إفريقيا " في فجر التاريخ و مرحلة ما قبل الأسرات " دكتورة أم الخير العقون\*

### مقدمة

يمكننا تعريف فجر التّاريخ بأبسط معانيه بأنه المرحلة الانتقالية التي تفصل وتصل في آن واحد بين المرحلة الماقبل التّاريخية بالعصور التّاريخية ، وهي المرحلة التي تختصّ بدراسة حضارة المجتمعات البشرية المعنية قبل إكتشافها للكتابة. وهي أيضا المرحلة التي اكتشف فيها الإنسان المعادن صناعة واستعمالا.

ولقد اصطلح على تسمية هذه الفترة في مصر باسم عصر " ما قبل الأسرات" على أساس أنّها مهّدت لقيام الأسرات الحاكمة في العصور التّاريخية. ففي هذه الفترة التزم المصريون بالزّراعة و اعتنوا بملكية الأرض ، ممّا أدى إلى قيام الوحدات الإقليمية. كما عرفوا استخدام المعادن ومنها النّحاس، الأمر الذي أدى إلى تطوّر أسلوب البناء وخاصّة عمارة المقابر في العصر العتيق، ومهد إلى بروز الإرهصات الأولى للكتابة.

لقد اخترت هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ الحضارة المصرية القديمة موضوعا لمداخلتي ، لأستقصي الآثار والصّلات بين طرفي إقليم شمال إفريقيا - شرقه و غربه - لأنّه وأمام هذا الحشد من التغيّرات الهائلة التي طرأت على حضارة ما قبل الأسرات، ذهب العديد من الباحثين إلى القول بأنّ هذ التطوّر و التميّز الحضاري قد بدأ فجأة ، وأنّ هذه الحضارة لم تنشأ في مصر، بل طرأت عليها مع وافدين غزوها . بينما تباينت وجهات هؤلاء العلماء حول الجهة التي نزع منها الغزاة ، فتعدّدت فرضياتهم، لكن لم يصمد منها غير فرضيتين هما :

- يتّفق أصحاب الفرضية الأولى على أنّ عناصر هذه الحضارة إنّما أتت من الشرق أي من آسيا، وإن اختلفوا فيما بينهم عن الجهة التي نزع منها الغزاة، أهي من الشمال الشرقي عبر شبه جزيرة سيناء ، أم من الجنوب الشرقي عبر واد الحمّامات ؟

ومن الأوائل الذين أخذوا بهذا الاتجاه الأخير : العالم الألماني " شارف SHARFF" ، الذي يرى بأنّ أصل هذه الحضارة من آسيا ، وأنّها قد دخلت عن طريق بلاد العرب والنوبة مخترقة البحر الأحمر.<sup>1</sup>

\* قسم التاريخ والاثار - جامعة وهران / الجزائر .

وإلى هلاء القوم نسب المتخصّص في الرسوم الصخرية في مصر هانز ونكلر، الرسوم الموجودة في صحراء، مصر الشرقية، وخصّص لهم مرحلة أسماها مرحلة الغزاة الشرقيين وهي معاصرة حسب رأيه لحضارة نقادة ما قبل الأسرات.<sup>٢</sup>

و ينسب أصحاب الفريق الأول التطوّر الحضاري الذي جدّ على مرحلة نقادة إلى الحضارة العراقية –السومرية- وقد إلتمسوا الشواهد لتأييد زعمهم هذا في بعض المناظر مصوّرة على يد سكين- حبل العركي- ومها الحيوانات الخرافية والقوارب من النوع الذي استخدمه السومريون ، و كذلك أسلوب الدخلات والخرجات الذي جدّ على بناء المقابر في أبيدوس ، والأختام الأسطوانية وكلها تقنيات وأساليب نسبها المتخصّصون إلى قدماء العراقيين ، وأطلقوا على هؤلاء الغزاة الشرقيين "أتباع حورس" *Les serviteurs d Horus* ، وأنّ هؤلاء هم من أرسى اللبنة الأولى للحضارة الفرعونية حسب زعمهم. - أمّا أصحاب الفريق الثاني فقد لاحظوا أوجه الشبه بين هذه الحضارة – نقادة- والحضارة الليبية ( شمال غرب إفريقيا) . ويرى ماسولار *Massaulard* ، بأنّ التماثل بين حضارة مصر في عصر ما قبل الأسرات من جهة والحضارات الليبية كثيرة ولا يمكن إنكارها .<sup>3</sup> و كان قد سبقه إلى ذلك "بترى *PETRIE* " الذي افترض حدوث غزوة ليبية على صعيد مصر في مرحلة لاحقة لحضارة البداري النيوليتية في المنطقة اي حضارة نقادة .

### حضارة نقادة:

<sup>1</sup> -A.SHARFF, some prehistory vases in British museum, in « Journal of Egyptian archeology » XIV T.3, 4. London : 1928, p. 268.

<sup>٢</sup> -H. Winkler :Rock drawings of the Southern Egypt V I Oxford University Press, London 1938, pp 29-30

- قام هانز ونكلر بدراسة الرّسوم الصخرية في مصر العليا من ١٩٣٢ - ١٩٣٧، وأصدر كتابه الأول سنة ١٩٣٨، ثمّ أصدر الجزء الثاني منه سنة ١٩٣٩، وقد خصّصه لدراسات رسوم منطقة العوينات، وقد قسّم ونكلر الرّسوم الصخرية في مصر إلى أربعة مجموعات : الصيادون الأوائل، سكان الجبال ( أصحاب اللباس الليبي) وهم معاصرون للغزاة الشرقيين ثمّ ظهر في وقت متأخر سكان وادي النيل (أصحاب القوارب) .

<sup>3</sup>-E. Massaulard, Préhistoire et protohistoire de l'Egypte .Travaux de l'institut d'ethnologie, Paris :1949, P. 171.

تمثل حضارة نقادة بمراحلها الثلاث: العمرة ، جزرة والسمانية\* ، مرحلة ما قبل الأسرات في صعيد مصر. ولقد جلبت انتباه الباحثين لأنّ مكتشف الحارة ( و هو بتري ) قال بأنّ حضارة نقادة في مرحلتها الأولى أي العمرة، هي من إنتاج جنس جديد New race قد استقرّ في مصر على طول مسافة ٢٦٠ كم بين سوهاج وكوم أمبو. وذهب إلى الاعتقاد بأنّ هذا الجنس قد دمّر و هجر جميع السّكان .

وعندما درس جماجم أصحاب العمرة وكانت بمجموع ٢١٩٣ جمجمة، وجد أنّهم يشبهون الليبيين القدامى إلى حدّ كبير ، وافترض أنّ إقامتهم في مصر بين أبيدوس والجبلين يدلّ على أنّهم قد أتوا من الصحراء الغربية عبر الواحات.<sup>4</sup> ثمّ أعاد «دي مورجان De Morgan» سنة بعد ذلك التاريخ دراسة هذا الموقع، وتوصّل إلى أنّ هذا الجنس الجديد لم يقتبس شيئا من حضارة الأقوام السابقة له، وأنّ العملية لم تحدث بين الدّولة القديمة والوسطى كما اعتقد بتري، وإتّما هي سابقة لتكوّن الأسرة الأولى، أي ما قبل الأسرات.<sup>٥</sup> ومن يومها تضاربت آراء الدّارسين حول أصل هذه الحضارة مستندين في إفتراضهم إلى ما أسفرت عنه نتائج الحفريات الأثرية الما قبل التاريخية في كلّ ربوع مصر، فمرة تميل كفة أصحاب الرّأي الأوّل وأحيانا ترجّح لصالح الفريق الثّاني وهكذا دواليك.

مما لا شكّ فيه أنّ التشابه في الأفكار الحضارية وفي تقنيات صنع الأدوات أو الرّسم يشير إلى أنّ التّواصل والتبادل الحضاري و الفكري كان موجودا منذ عصور ما قبل التّاريخ. وفي الفترة التي نحن بصدد دراستها و هي عصر ما قبل الأسرات، لم تكن هناك من الحدود الطبيعية أو السياسية ما يعوق هجرات الجماعات والأقوام، و قد أثبتت الحفريات الأثرية أنّه كانت هناك اتّصالات بين الأقاليم وتأثيرات متبادلة ، إلّا أنّ زيادة أو قلة حجم هذه التأثيرات قد توقفت على الموقع الجغرافي لكلّ إقليم ومدى قرابه أو بعده عن مصر.

\*- اكتشف وليام ماثيو فلندر تيري بمعاونة إدوارد كويل حضارة نقادة فيما بين ١٨٩٥ و ١٨٩٦، وقسمها إلى ثلاثة مراحل، أولاها مرحلة العمرة وأرّخ لها من الدّرجة ٣٠ إلى ٣٩ ثمّ تلتها مرحلة جزرة من درجة ٤٠ إلى ٦٠ و أخيرا مرحلة السمانية وهي أحدثها. ولقد استمرت لغاية ٧٨، وذلك حسب النّظام الذي أوجده بتري سنة ١٩٠١ والمعروف بالتتابع الزمني Séquence dates معتمدا على تصانيف الفخاريات الكثيرة بهذه المرحلة . وقد بقي معمولا به رغم سلبياته لغاية إكتشاف الكربون ١٤ سنة ١٩٤٧.

٤- W.N.F. PETRIE & J.E QUIBELL, Naquada and Ballas London : 1896, P. P: 58-60.

٥- DE MORGAN, J, recherche sur les origines de l'Egypte.T2 , Paris : 1897. p.p : 13-

وأخذا بهذا المقياس- القُرب و البُعد - نجد أنّ مصر وشمال غرب إفريقيا قد ضمّهما إقليم واحد هو شمال إفريقيا. لذلك نتساءل لماذا نبحت عن ملهم الحضارة الفرعونية في الخارج ولا نعتبره من أصل محليّ، وأنّه إرتقاء حضاري في فصله الأخير ، بعد أن كان قد تجذّر في المهد أي في " الصحراء الكبرى " ؟ ولماذا نبحت عنه في آسيا وليس في إفريقيا، خاصة وأنّ الحفريات الأثرية قد أثبتت دون أدنى شكّ بأنّ الصّلات لم تنقطع بين طرفي شمال إفريقيا(مصر وشمال غرب إفريقيا) طيلة العصرين الحجريين القديم والحديث؟ فلماذا تتوقف هذه الصّلات فجأة في مرحلة ما قبل الأسرات، لتعاود الظهور بعد ذلك طيلة العصور التاريخية كما أشارت إليه النصوص المصرية القديمة فيما بعد ؟

وقبل أن نتناول ما يُثبت استمرار الصّلات بين مصر و شمال غرب إفريقيا في مرحلة ما قبل الأسرات أرى من الضروري أن أشير و لو باختصار شديد ما يثبت هذه الصّلات أثناء العصرين الحجريين القديم والحديث ، لأن هذه الصّلات كانت عبارة عن حلقات متصلة عبر كل العصور ولم تنقطع أبداً، وإن كانت قد تراوحت من حيث حجمها وطبيعتها.

### - الصّلات بين مصر وشمال غرب إفريقيا أثناء العصور الحجرية

#### ١- العصر الحجري القديم:

يمكننا أن نلخص تلك الصّلات في انتشار الحضارة العاترية ، وقد ظهرت في شرق الجزائر نواحي تبسة أثناء الباليوليتي الأوسط وبعد مرورها بلبيبا حيث عثر على مواقعها "ماك برني M.C.BURNEY" بالجبل الأخضر في كلّ من "وادي درنة" و "وادي مصمودا" . وصلت الأقوام العاترية إلى واحات سيوة الدّاخلة الخارجة، حيث وجدت في موقع "عين العمر" <sup>6</sup> . ثمّ انتقلت جنوباً إلى نفاذة و "دندرة" ولم تنتشر أبعد من وادي النيل لأنّ هذه الأقوام وجدت المكان مناسباً للإستقرار بعد أن فرّت من شمال غرب إفريقيا تحت ضغط إنسان المشتى العربي حامل الحضارة الوهرانية أثناء الحجري القديم الأعلى<sup>٧</sup> كما تذهب إليه المعطيات و المؤشّرات.

أمّا الحضارة القفصية - تتمركز مواقعها النموذجية بالهضاب العليا بين تونس وشرق الجزائر- فهي من صناعات العصر الحجري القديم الأعلى ،فقد اكتشف بعض مواقعها "ماك برني" في كهف هوافتيح بلبيبا ومنه نزحت باتجاه الشرق نحو مصر. وقد عثرت " كاتون تومبسون CATON

<sup>٦</sup> -CATON THOMPSON & W.GARDNER : Kharga oasis in Prehistory. London: 1952, P.P: 31-89.

<sup>٧</sup> -ARKELL & SQNDFORD : Paleolithic man and the Nile valley in the upper and middle Egypt.,University of Chicago over institute publication. VXVII 1934 P.110.

THOMPSON" على مواقع لها في واحة الخارجة في طبقة تلي الطبقة العاترية مباشرة . وأطلقت عليها اسم "الميكروليتي البدوي" ونسبتها إلى أقوام متنقلة جاءت من شمال غرب إفريقيا وإستقرت في مثلث بين الدّاخله والخارجة والجلف الكبير (صحراء مصر الغربية).<sup>8</sup>

كما اكتشف الأمير كمال حسن مواقع القفصية في منخفض "عين دالة" وشمال الفرافرة، وقد اعتقد بأنّ السبب في نزوح الأقوام القفصية بإتجاه النيل هو ميل المناخ نحو الجفاف في أواخر الباليوليتي الأعلى<sup>9</sup> . كما عثر "جرودي كوتفيل GIRAUDET- COTTEVILLE" مواقع القفصية في كلّ من طيبة والفيوم ، وبعد دراستها وجد كوتفيل بأنّ هذه الصناعة الوافدة (القفصية) متقنة الصنع ومتفوقة على السبيلية المحلية المنشأة (مصر).<sup>10</sup> كما عثر على مواقع للقفصية شمال مدينة حلوان ، بين خط السكة الحديدية وعزبة الوالدة.<sup>11</sup>

٢-العصر الحجري الحديث:

لقد تواصلت هجرات الجماعات البشرية في الفترة اللاحقة ناقلة معها خبراتها الفنيّة. وقد اشترك الإقليمان في تقنيات صنع الأدوات وفي عادات واحدة، و تعتقد الباحثة" كاتون تومسون " بأن أدوات المستوى "ب" من حضارة الفيوم النيولينية ، من إنتاج أقوام قفصية كانوا يعيشون في الصحراء، وتحت طائلة الجفاف انتقلوا إلى الفيوم .<sup>12</sup>

وتؤكد السيّدة "هو لمز HOLMES " - رئيسة البعثة الإنجليزية الأمريكية في دراسة صدرت في سنة ١٩٨٩- هذه التأثيرات الغربية (شمال غرب إفريقيا) التي جدّت على حضارة الفيوم .<sup>13</sup>

و تبيّن الدّراسات الما قبل التاريخية التي مسحت بقاعا واسعة من النوبة وجنوب ليبيا، هي الأخرى بأنّ حضارة البداري النيولينية (صعيد مصر) وهي سابقة لحضارة العمرة(ماقبل الأسرات ) ، قد اتبعت في صناعة أدواتها الحجرية المتنوّعة (رؤوس سهام حادّة ومجنّحة، أسلحة على شكل ورق الصفصاف المكاشط والسكاكين) تقنية النشطية على الوجهين . وكلّ هذه

<sup>8</sup> - CQTON THOMPSON & W, GARDNER , Op. cit . P :34-35.

<sup>9</sup> - KAMEEDDINE HASSAN & BOVIER LA PIERRE , Récentes explorations dans le desert libyque ., LE CAIRE : BIE ( bulletin de l'institut de l'Egypte, 1929-1930 T12 p.p. 123-126.

<sup>10</sup> -GIRAUDET- COTTEVILLE : L'Egypte avant l'Histoire. BIFAO, V.32,1933, p.24.

<sup>11</sup> - ARKELL & SANDFORD ,Op.cit. p.p :116-118.

<sup>12</sup> - CATON THOMPSON &GARDNER W, the desert Fayoum Royal anthropological institute publication , London 1934 p.p57-58.

<sup>13</sup> -MIDANT BEATRIX REYNES, préhistoire de l'Egypte des premiers hommes aux premiers pharaons. Paris : Armant colin,1992.p.107.

الأدوات وهذه التقنية هي نفسها التقنية المميزة للعصر النيوليتي في الصحراء الوسطى (الجزائر). وترى "ميدانت Midant" المتخصصة الفرنسية لما قبل التاريخ -وقد درست مواقع نيوليتية كثيرة في صعيد مصر - بأن أهالي البحرية والفرافرة والدّاخلَة ، كانوا يمتنون الرّعي وتحت تأثير الجفاف، انتقلوا في أواخر الألف الخامسة إلى نواحي أسبوط قريبا من مواقع البداري النيوليتية.<sup>14</sup> إن الصّلات كثيرة بين وادي النيل وشمال إفريقيا خلال العصر الحجري الحديث\* .و إن لم يتأخر الباحثون المختصون في إرجاعها إلى تأثير منتقل من إقليم إلى آخر، إلا أننا نرجع هذا التشابه إلى الأصل الواحد للمؤثرات ، على أساس أنّ الصحراء كانت همزة وصل بين طرفي شمال إفريقيا ، فمنه انطلقت المؤثرات الواحدة للإقليمين أو عبره..

### - الصحراء مهد حضارات شمال إفريقيا النيوليتية:

لقد أصبح أمرا مسلما به لدى المختصين بأنّ الصحراء كانت في عصور ما قبل التاريخ تختلف تماما على ما هي عليه اليوم من حيث مظاهر السطح الطبيعية . ولما حلّ الجفاف بعد المرحلة المطرة الثانية ، أي بعد العصر الحجري القديم الأعلى ، وقبل العصر الحجري الحديث ، أصبحت الهجرات في هذه الفترة تخرج من الصحراء صوب النيل وليس العكس. ولذلك نفترض وجود أصول مشتركة تجمع الجذور الأولى لحضارات الإقليمين أثناء العصر الحجري الحديث،و أن ما يُعرف اليوم بالصحراء كان بمثابة معمل بشري يصدر المؤثرات بظهور الجفاف قبل مرحلة المناخ الأمثل التي سادت العصر النيوليتي ..

وأستند من أجل توضيح هذه الفرضية إلى المؤثرات التالية:

- 1- اشتراك الإقليمين في تقنية التشطية والأدوات المميزة للعصر، وأيضا لبعض العادات مثل دفن الموتى تحت أرضية المسكن في حضارة مرمدة بني سلامة (نيوليتي الوجه (البحري) فهي تشبه عادة الأقوام القفصية النيوليتية(شمال غرب إفريقيا). ومقابر المعادي نيوليتية وجه بحري) مشابهة هي الأخرى للنوع المعروف بـ الدولمن في شمال غرب إفريقيا .
- 2- لا يكمن التشابه في الأدوات والتقنيات فحسب ، بل تعداها إلى صفات الإنسان الصّانع لهذه الحضارات أيضا ، إذ تعنقد " شاملا CHAMLA "بالأصل الزنجي لإنسان" أسلار Asselar " في أقصى جنوب الصحراء (الجزائر)،

<sup>14</sup> - OP.CIT, p.155.

أنظر مقالة للدكتور عباس سيد أحمد محمد تحت عنوان الصّلات الحضارية بين وادي النيل وشمال إفريقيا خلال العصر الحجري الحديث ٨٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م . في كتاب الملتقى الثاني لجمعية الإثاريين العرب القاهرة ١٩٩٩ .

فهو مشابه لإنسان الخرطوم الزنجي الذي عرفه "لوبلان Le Blanc" بأنه متميز ببنية قوية وجمجمة طويلة وضيقة ، و بفكّ عريض وذقن بارزة .<sup>١٥</sup> ولم يبق إنسان مصر بعيدا عن السلالة الزنجية - كما ثبت علميا بعد دراسة جماجم البداري و العمرة - أنّ نسبة الزنوج تمثّل ٣٦ بالمائة.<sup>١٦</sup> و يعتقد "أركل َ ARKELL أيضا بأنّ إنسان مرمدة وإنسان بني سجوال (بجاية على الساحل الجزائري) ذو ملامح زنجية اختلط أو تزوج بجنس قادم من أوربا(سلالة البحر المتوسط).<sup>١٧</sup> وفي ملتقى القاهرة حول أصل سكان مصر القديمة المنعقد فيما بين ٢٨ جانفي لغاية ٣ فيفري ١٩٧٤ ، اختتم أشغاله بالنتيجة التالية من طرف الخبراء: " إنّ سكان مصر ولغاية ما قبل الأسرات من أصل صحراوي بإختلاف ألوانهم من بيض وسود، فكّهم من إفريقيا، و أنّ مصر لم تدخلها أقوام شرقية أو أسيوية على شكل هجرة أو غزوة لغاية دخول الهكسوس، وبالتالي نرفض نظرية أتباع حورس . فعلى العكس من ذلك فإن الاتصال كان مباشرا بالمناطق المتاخمة لإفريقيا.<sup>١٨</sup>

### - فن الرسوم الصخرية:

وتعدّ هذه الرسوم من أهمّ ما خلفه الإنسان في العصور الحجرية، فقد أنتج أصحاب حضارة الصيادين - وهو الاسم الذي يطلق على النيوليتي ذي التقليد السوداني - فناً واحداً عبر كل شمال إفريقيا ، لكن بأسلوبين مختلفين . وهذا الاختلاف في الأسلوب لا يُنقص من طبيعة وحدة هذه الأقوام ، بل يؤكدها ، إذ أنّ هناك ثقافات بأسلوب أو أكثر في الرسم.<sup>١٩</sup> وهؤلاء الصيادون هم أصحاب تلك الرسومات في وادي جرات بالتاسيلي (الجزائر) وعين هابيتز بفران (ليبيا) وجبال جرجد جنوب سولا ب وادي السبوعة، وامتدت إلى غاية واحة الداخلة والعوينات (مصر). وأمّا عن صفات هؤلاء الصيادين أصحاب الحضارة النيوليتية في الصحراء ، فقد أظهرتهم

<sup>15</sup> - MARIE CLAUDE CHAMLA, les populations anciennes du Sahara et des régions limitrophes «études des restes osseux humains néolithique .et protohistoriques »in memories crape IX Paris :1968.p.201.

<sup>16</sup> -H.ALIMEN,Préhistoire de l' Afrique du nord. Paris :ED.N.Boubée, 1955. p.42.

<sup>17</sup> -J.ARKELL,SHAHEINAB. OXFORD :1953, p. p : 114-115.

<sup>18</sup> -CHEIKH ANTA DIOP, «origine des anciens Egyptiens» in HISTOIRE GENERALE DE L'AFRIQUE , T.II, AFRIQUE ANCIENNE. PARIS :UNESCO,1987, p. p :77-79.

<sup>19</sup> -HUARD &LE CLANT, la culture des chasseurs du Nil et du Sahara .in mémoires du centre de recherche anthropologique, préhistorique, et ethnologique II, ALGER :1977,p.517.

رسوماتهم الموجودة بالتاسيلي بأجسام عارية يحيط بالخصر حزام يرتبط من الأمام بساير العورة (كرنطة)، ومن الخلف بذيل طويل. وقد زينوا أذرعهم بما يشبه قلادة أو وشم ، وكانت لهم لحى مدببة وسلاحهم أقواس وهراوات، وهي أقدم من مثيلاتها التي وجدت في مصر في عصر ما قبل الأسرات حوالي ٣٥٠٠ ق.م.<sup>20</sup>

و قد سبق "هوارد" إلى ذلك، "جوردون تشايلد G.CHILDE" ، الذي يرى أنّ فن الرسم في مصر، يرجع الفضل في وجوده إلى قدوم أقوام صحراوية خالصة للإستيطان فيها، وهي أقوام قد اضطرتها إلى الهجرة ظروف الجفاف، وقد إكتسحت النيل واندمجت مع حضارة البداري. و بناء على هذا التلاقي، إنبثقت أولى ثقافات حضارة ما قبل الأسرات في فجر التاريخ.<sup>21</sup>

#### - الصلات أثناء مرحلة ما قبل الأسرات:

لقد استمرت الصلات بعد العصرين الحجريين القديم والحديث ، لتتواصل العلاقة بين الجارين أثناء مرحلة ما قبل الأسرات وخُذ الرّسام المصري القديم كلّ ذلك على ألواح و صلايات حجرية التي أصبحت في أواخر مرحلة ما قبل الأسرات ذات أهميّة قصوى ، لأنّ الرّسم كان مصحوبا ولأوّل مرّة، بأوّل العلامات للكتابة المصرية القديمة . وإنّه لذو مغزى أن تكون بعض العلامات الأكثر قدما في الكتابة المصرية القديمة تشير إلى بلد وشعب ليبيا (شمال غرب إفريقيا).

وتشير هذه الألواح في مجموعها إلى علاقة الأقوام الليبية بوادي النيل ودلتاه، وتقدّم دليلا على أنّ هذه الأقوام قد شكّلت جزءا هاما من التركيبة البشرية والاجتماعية لمصر القديمة.

#### - مقبض سكين "جبل العركي"

اختلف الدارسون حول هذه القطعة الأثرية التي هي عبارة عن مقبض عاجي لسكين حجرية مزّين برسومات تعود إلى المرحلة الثانية من حضارة نقادة (أي جزرة).

ويكمن سبب الإختلاف في أنّ المقبض يحمل ما يشير إلى وجود تأثيرات عراقية، وخاصّة مرحلة "أوروك". يظهر على أحد وجهي المقبض رسم شيخ كبير ملتح يشبه الساميين القدماء، يلبس عمامة فوق رأسه، و هو في هيئة معبود

<sup>20</sup> - HUARD & LE CLANT , « contribution saharienne à l'étude de questions interessant l'Égypte ancienne » in, bulletin de la société Française d'Égyptologie n°45, Dordogne : 1966, p.15.

<sup>21</sup> G. CHILDE , l'Orient préhistorique. Paris: Payot 1935, p.86.



عراقي، وبيديه المجردتين يفصل أسدين مشتبكين، وجانبهما مركبتين غريبتين عن الطراز المصري، يرى فيه بعض الدارسين طرازاً سومرياً.<sup>٢٢</sup> أما الوجه الثاني، وفيه دلالة على العلاقة المبكرة بالليبيين، فنتبينه في مشهد معركة على البر والماء بين فريقين اتخذ أحدهما هيئة المصريين، واتخذ ثانيهما هيئة الليبيين بشعور مسترسلة على الأكتاف، متمنطقين بحزام مزود بجراب العورة.

وبمقارنة هؤلاء بالليبيين بأولئك الذين ظهروا على صلاية الملك العقرب، و على معبد الفرعون سحورع فيما بعد وجدت " دوزانج DESANGES " أنهم قوم التّحنو الليبيّين المتميّزين بطول القامة والشفاة الغليظة، يضعون على الصدور خيوط متقاطعة تعلوها حلية على الرقبة.<sup>٢٣</sup>

### - لوحة الصيادين :

ويطلق عليها أيضاً إسم لوحة صيد الأسود. وتعود في تاريخها إلى مرحلة جزرة حوالي ٣٥٠٠ ق.م مثل مقبض السكين.

وتصوّر النقوش على أحد وجهي هذه اللوحة، ما يرجح قيام صلات طيبة بين المصريين وجيرانهم الليبيين وخروجهم معاً للصيد. ولقد نقش على أحد وجهيها، مجموعتان من الرجال انتظموا في صفين على حافتي اللوحة العريضتين، تفصل بينهما ساحة صيد، تفرقت فيها الغزلان وطائر النعام والأرانب والأسود وكلاب وحيوانات خيالية. ويقابلها أسدان مرشوقين بالسهم، وغزالة عالقة في حبل الصيد. و ظهر الرجال بشعر مستعار ولحية مستعارة أيضاً. أما الرداء فكان عبارة عن نقبة قصيرة تبدأ من الخصر وتقف أعلى الركبتين، ويحيط بها حزام يلتصق به من الخلف ذيل وقد وضع كل رجل ريشة أو إثنين على رأسه<sup>٢٤</sup>، كما توضحه اللوحة رقم ١.

وهذه الصفات مجتمعة من مميزات الليبيين كما ستوضحه بقية الألواح التي تحمل الكتابة الدالة على نسبهم الليبي.

<sup>22</sup> – MIDANT REYNES BEATRIX , Op.cit, P.223.

<sup>23</sup> – J. DESANGES, « les Protobèrères » in Histoire générale de l'Afrique. T. II. l'Afrique ancienne.Paris: UNESCO,1987.P.P: 315-316.

- راجع ذلك أيضاً : سليم حسن ، مصر القديمة، ج.٧. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠١ ، ص.٢٨.

<sup>24</sup> - عبد العزيز صالح ، حضارة مصر القديمة وآثارها في الاتجاهات الحضارية العامة حتى الألف الثالثة ق.م، ج ٢ القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٩٦٢، ص. ١٩١.

ونتساءل عمّا إذا كان هناك استقرار لبيبي في المقاطعة الثالثة في الدلتا المصرية، خاصةً وأنّ اللوحة قد حملت أيضا رمز المقاطعات الثالثة (غرب الدلتا) والرابعة عشر (شرق الدلتا) وخروجهما معا للصيد.<sup>٢٥</sup>

#### - لوحة الأسد والعقبان:

ويُصنّفها المختصون في نفس المرحلة التي وقع فيها تأثير على حضارة نقادة أي مرحلة جرزة \* . وتكمن أهمية هذه اللوحة في أنّها تتضمن جزءا أو بقايا علامة تصويرية. ويعتقد أنّها من أقدم العلامات الكتابية وتعني أرض التحنو. ويصوّر المنظر على أحد وجهي اللوحة، وحدة زخرفية، بينما صوّر على الوجه الآخر معركة غاية في العنف، إذ يتوسّط وجه اللوحة أسد غاضب يمزق صدر عدو يتلوّى جسده على الأرض، والأسد ربما يرمز إلى قوّة الملك. وقد توزّعت حول الأسد وفريسته عناصر أخرى منها: شخصية لم يبق منها غير نصفها الأسفل، ترتدي زيا طويلا مزركشا، أغلب الظن أنّها تمثّل معبودة مصرية. وقد دفعت أمامها أسيرا عاريا إلا من جراب العورة، وشدّت ذراعيه خلف ظهره، ويبقى أمام الأسير جزء من علامة تصويرية، تعبّر على اسم التحنو- أقدم القبائل الليبية الي أشار لها المصدر المصري- وترامى أمام الأسد أفراد من نفس الأعداد وقد إنقضّت على جثثهم أسرابا من العقبان،<sup>٢٦</sup> كما يتضح على اللوحة رقم ٢.

#### - لوحة الحصون والغنائم:

وتسمّى أيضا لوحة "البيبا"، وتعتبر أقدم وثيقة وصلت إلينا تعبّر صراحة عن وجود ليبيا كأرض معروفة ومعمورة تتزامن مع بدايات الحضارة المصرية القديمة-الفرعونية- وبالتالي فهي تُخرج ليبيا وأيام حكم التحنو من ظلام ما قبل التاريخ. وتحتوي اللوحة هذه المرّة على العلامة التصويرية -الدالة على أرض ليبيا - كاملة . وقد اتّخذت فيما بعد رمزا تقليديا يشير إلى ليبيا والليبيين (التحنو) في النقوش المصرية، وهذه العلامة هي رمز البومرنج<sup>٢٧</sup> ، أي العصا المعقوفة.

<sup>25</sup> - MIDANT REYNES BEATRIX ,Op.cit , P.224.

\* - يعتقد "فركوتر VERCOUTTER" بأنّها تنتمي إلى مرحلة السمانية اوليست مرحلة جرزة.

& MIDANT, OP. CIT. P.226. <sup>26</sup>عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١٩٥.

<sup>27</sup> -ألن جاردنر، مصر الفراعنة، تر. نجيب إبراهيم ميخائيل، ط٢. القاهرة:الهيئة المصرية العامّة للكتاب ١٩٨٧، ص. ٤٢٦.

\*\* - العصا المعقوفة أداة صيد اتّخذها الكاتب المصري رمزا من رموز كتابته التصويرية.

ولم يبق من هذه اللوحة إلا الجزء الأسفل، وهي محفوظة في القاعة الكبرى بالمتحف المصري بالقاهرة وتحمل رقم J.E27434 ( اللوحة رقم ٣). يصنّفها المختصون في مرحلة انتقال بين نقادة الحديثة أي السمانية والمرحلة التاريخية. ويعطى لها عمر بين ٣٢٠٠ و ٣١٠٠ ق.م.<sup>٢٨</sup> ولقد صوّر الفنان على أحد وجهيها قطعان من الثيران والحمير والكباش، تسير في صفوف فوق بعضها البعض، وتحتها صور لشجر يشبه أشجار الزيتون ونُقشت أمامها علامة تدلّ على أرض التحنو، وقد صوّر على الوجه الآخر سبعة مربّعات محاطة بأسوار قد تعيّر عن مدن محصّنة، وقد يكون من المبالغة القول بأنّها مدن، بل إن الأمر لا يعدو أن يكون قلاعاً ومعسكرات، لها أسوار من الطوب اللّبن ومزوّدة بأبراج، كما تظهر على اللوحة وبوضوح صورة عقرب وأسد وصقر مزوّدة بالهدهد تشبه الفأس، وقد تكون هذه الحيوانات صفات للملك.<sup>٢٩</sup> وإن كان جاردينر لا يرى فيها صفات زعيم بل يعتقد أنّها تميّز أقاليم معيّنة تحارب معا كحلف، خاصّة مشهد لواء الطائرين وهما يحطّمان قلعة في الرّكن السفلي الأيسر للوحة، المربّع الخامس داخل اللوحة رقم ٣. ويعتقد أنّها تمثّل المقاطعة القبطية فيما بعد - خامس مقاطعات مصر العليا.<sup>٣٠</sup>

وداخل كلّ مربّع من المربّعات السبع توجد صورة مميّزة ليست إلاّ شعارات وأسماء لهذه المدن أو القلاع. وهذه الصور غير واضحة، ويعتقد أنّها تمثّل - من يسار اللوحة إلى يمينها- جعران، مصارعان، طائر ذو عنق، بومة، نبات يشبه النخلة، كوخ وذراع مزدوج.

وفي حالة إرتباط الشكلين ببعضهما البعض، فإنّ الوجه الأوّل يكون تخليداً لانتصار ملك مصري، بينما يكون الوجه الثاني تسجيلاً للغنائم التي استولى عليها من الزرع والماشية من أرض التحنو اللّيبية .

**- الختم الأسطواني للملك نعرمر ولوحته:**

لقد عثر على الختم في هيراقنبوليس (صعيد مصر ) ، وتمثّل المناظر المرسومة مرحلة من مراحل كفاح نعرمر في توحيد مصر ، فهي تصوّر ثلاثة صفوف من الأسرى اللّيبين ، قُبِدت أيديهم وفي الجانب الأيمن من المنظر كُتبت اسم نعرمر ، وعلى اليسار منه كُتبت العبارة التّالية: Hsf.thnw خسف التحنو أي قتل التحنو.

<sup>28</sup> -J.VERCOUTTER, l'Égypte et la vallée du Nil , tome I « des origines à la fin de l'ancien empire de 12000a 2000A.C.» Paris : Presses Universitaires de France, 1992.P.196.

<sup>29</sup>MIDANT, OP. CIT, P.226.

<sup>30</sup>- ألن جاردينر ، المرجع السابق ، ص.ص:٤٢٦-٤٢٧

أما اللوحة ، فيظهر على أحد وجهيها (اللوحة رقم ٤ - أ ) الملك نعرمر بحجم كبير وقد ظهر بتاج مملكة الوجه القبلي فقط ، يضرب عدوا جاثما على ركبتيه ، وقد ظهرت فوق رأسه العلامة الدالة على اسم بلده وهي عبارة عن طائر الخطاف وحوض ماء .

وقد ظلَّ الخَطَّاف رمزا لأقصى الأقاليم الشمالية الغربية للدلتا التي تسكنها الأقوام الليبية<sup>31</sup> . أما الباحثة " ألكسندرا نيببي" فتري في طائر الخَطَّاف وحوض الماء، بحيرة الفيوم ، وتعتقد بأنَّها كانت من أماكن استقرار الليبيين قبل إستيلاء ملوك العصر النيني عليها<sup>32</sup> . وإن كان قد ظهر في لوحة الحصون والغنائم أول رمز يشير إلى الليبيين وهو البومرنج أي العصا المعقوفة ، بإعتباره رمزا لإقليم يقع في الشمال، فإنَّه قد أضيفت إلى هذا الرمز علامة تصويرية جديدة هي عبارة عن جسم بدون أطراف، كشكل إهليلجي(OVALE)، وقد برزت منه ورود من البردي، والرَّمز ككلَّ يعني الدلتا<sup>33</sup> . في حين يرى جاردنر في ذلك جزيرة أو واحة في الصَّحراء تعبّر عن البلاد الأجنبية<sup>34</sup>.

أما على الوجه الآخر من اللوحة ( اللوحة رقم ٤-ب) فيظهر الموضوع أكثر وضوحا، حيث يبدو الملك نعرمر وعلى رأسه تاج مملكة الوجه البحري.

و تتضح الصورة فيما بعد ، إذ ورد على الآثار ، بأنَّ الملك نعرمر شَنَّ غارة على الليبيين غرب الدلتا وأسّر منهم حوالي مائة وعشرين ألف نسمة ، عدا مليون وأربعمائة وعشرين ألف من الأغنام وأربعمائة من البهائم. ويعلّق "برستد" بأنَّ هذه الغنائم كانت بمثابة طرد عام للليبيين<sup>35</sup>.

١- إن ما يمكن استخلاصه بعد قراءتنا لهذه الألواح الصريحة في تعبيرها ، مايلي:  
نلاحظ في الألواح الثلاثة الأولى بأنَّ الأشخاص هم بنفس مواصفات الليبيين ، التي تعود عليها الرّسام المصري طيلة العصر الفرعوني القديم ، وهي تشبه مواصفات سكان الدلتا " المهزومين" في اللوحة الرابعة (لوحة نعرمر)؛ لكنهم يختلفون عن الأشخاص المصاحبين له(لنعرمر) من أهل مصر العليا<sup>36</sup>.

<sup>31</sup> عبد العزيز صالح، المرجع السابق. ص. ٢٢٤ . Midant, op. cit. & -p.227.

<sup>32</sup>:ALEXANDRA NIBBI? Lapwings and Libyens in ancient Egypt Oxford :B,O card press,1986.p.86-88.

<sup>33</sup> -Vercouter,Op.cit. p.p :188-190.

<sup>34</sup>- Alan Gardner, Egyptian Grammar. Third ed. revised ,OXFORD: griffith institute ,1982 .,p. 487.

<sup>35</sup>- جيمس هنري برستد ، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي ، تر، ط٢. القاهرة: الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ١٩٩٧، ص.ص:٤٤-٤٥.

<sup>36</sup> -J. VERCOTTER , op.cit.p.189.

٢- تشير هذه الألواح في مجموعها إلى مرحلة المرور من فجر التاريخ إلى المرحلة التاريخية . وتشير بوضوح إلى نوع العلاقة بين الطرفين ، فتروي نقوش الصّلاية الأولى- لوحة الصيد- صلات طيبة ، وخروج الجارين الليبي والمصري معا في نزهة صيد. أما بقية الألواح فتؤكد العداء والإصطدام بين الفريقين في مرحلة حرجة من تاريخ مصر، وهي لم تتبين بعد سياستها الخارجية ولم تضع حدودها الجغرافية الثابتة.

٣- قد تُفسّر مناظر العداء و الإصطدام هذه على أنها محاولات لجماعات ليبية تريد الإستقرار حول مجرى النيل أو العكس، أي عملية تهديم معسكراتها و طردها من مصر. وهذا الافتراض الثاني أكّده لوحة نعرمر، وقد تأكّدت الفرضية أكثر في المرحلة اللاحقة وهي مرحلة بداية الأسرات في تاريخ مصر، التي تبين بوضوح إستعادة الليبيين "أراضيهم" في مصر وردع الفراعنة لهم من جديد في الأسرة الثانية.

٤- إننا نفترض بأنّ فكرة ليبيا كبلد أجنبي، قد تبلورت في وقت وسط بين زمن لوحة الحصون والغنائم، وزمن لوحة نعرمر ، عندما كان هذا الأخير في طريقه إلى توحيد مصر. وعليه فإنّ الحملة على ليبيا والحروب من أجل الوحدة ، لم تكن مختلفة عن بعضهما البعض ، وتتمثل لنا العلاقة الجديدة بين البلدين جليا -من خلال استخدام علامة كتابية جديدة على لوحة نعرمر - عندما تتحدث عن ليبيا بوصفها بلادا أجنبية معادية، وبأنّ الليبيين قد أصبحوا بالنسبة لمصر قوما أجنب.

### الخاتمة:

يؤكد علماء مصريات EGYPTOLOGUES ممن لهم باع طويل في تخصصهم، واستنادا إلى دلائل أثرية كثيرة - غير التي عرضناها أمامكم - ما اتفق عليه علماء ما قبل التاريخ، في أن الصلة لم تنقطع أبدا بين مصر وشمال غرب إفريقيا طيلة العصور القديمة. فهذا برستد يعتقد في استقرار أقوام ليبية في شمال غرب الدلتا قبل مرحلة ما قبل الأسرات وأثناءها وأن مدينة صان الحجر(سايس) كانت مركز نفوذ الزعيم(الملك) الليبي في مصر.<sup>٣٧</sup> ولقد كانت معبودة مدينة سايس هذه، هي الإلهة الليبية " نيت " و استخدم رمز هذه المعبودة في الوشم على أذرع الليبيين كما تبينه رسوم كثيرة و منها الموجودة على جدران مقبرة الفرعون سيتي الأول ( الأسرة ١٩ ) بالأقصر، والتي تمثل منظرا عاما لشعوب العالم الأربعة ومنها الليبيون. وقد اكتشف الأثري "بثري" من جهته قبراً بـ"أبيدوس" لملكة من الأسرة الأولى، تحمل اسم "مري- نيت" ، أي محبوبة الإلهة نيت . ويعتقد "كابار CAPART" ،

بأنها أرملة الملك الليبي الذي هزمه "نعرمر" وتزوجها هذا الأخير لتأكيد الوحدة.<sup>38</sup> أما "وينرايت Wainright" فقد لاحظ في دراسة لفخار حضارة نقادة ما يشير إلى خروج مؤثرات ليبية من سايس (عاصمة مملكة الوجه البحري) باتجاه نقادة، بحسب زعمه. واستدل على ذلك بوجود التاج الأحمر، وهو رمز مملكة الشمال مرافقا لرمز الإلهة نيت، على الكثيرين من الآنية. ويذهب "وينرايت" إلى أن الأقوام الليبية في طريقها إلى الجنوب (نقادة)، قد تركت ما يشهد على هذا المرور. ومنها اتخاذ الكثير من مقاطعات الصعيد، وهي: الكاب، طيبة، قفت، دندرة، ديوسبوليس، بارفا (هو)، أبيدوس، بانوبوليس (أخميم)، الريشة رمز الليبيين شعارا لهم.<sup>39</sup>

وإلى جانب سعة انتشار واستخدام الريشة و رمز الإلهة " نيت" وهما رمزان لبيبان، هناك أمر آخر يثير الحيرة والاستفسار، ويتعلق بطبيعة وأصل الإله "ست" إله الشر وإله الصحراء الجذباء في نفس الوقت، على أختام الملك، "برايب سن" ( الأسرة الثانية)، فقد كُتب اسم "آش" فوق رسم الحيوان الذي يشير للإله ست.<sup>40</sup> ونحن نعلم أن آش إله ليبي ورد ذكره في النصوص المصرية ( معبد سحرورع الأسرة الخامسة). فهل التباس الأمر على الرسام المصري لأن الشكل الحيواني للإلهين متشابه؟ أم أن للأمر ما يفسره، خاصة إذا علمنا أن الإله ست كان المعبود المحلي لمدينة أمبوس التي تبعد عن مدينة نقادة بخمس كيلومترات فقط؟

ومن الأهمية بمكان الإشارة أيضا إلى أنه ضمن آنية العمرة و هي المرحلة الأولى من حضارة نقادة، يوجد إناء مرسوم عليه حيوان، قال عنه "شارف" أنه يمثل الحيوان الذي يُرمز به للإله ست.

إذن ما هي الصلة بين الإلهين آش وست؟ إذ يرى "أدولف إرمن" بأن الإله "آش" الذي كان يُعبد في واحات الصحراء الغربية، يشبه الإله ست عند المصريين، وقد حلّ محلّه فيما بعد.<sup>41</sup>

هل يجوز لنا أن نفترض بعد هذا الطرح أن يكون الإله "آش" هو نفسه الإله "ست"؟ أم أن "آش" قد تطوّر فأصبح ست؟ وفي هذا الصدد ورد عند "

<sup>38</sup>- M.Caprat Le Préhistorique égyptien . Bruxelles : société d'Anthropologie. T .XX.1904, p.6.

<sup>39</sup>-G.A.WAINWRIGHI, « the red crown in early prehistoric times » in J.E.A N° 9. LONDON : The Egypt exploration society,1923, p.p:2829.

<sup>40</sup>-ألن جارد نر ، المرجع السابق. ص. ٤٥٣.

<sup>41</sup>-أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة. تر. عبد المنعم أبوبكر ومحمد أنور شكري. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥، ص. ٤٦٤.

جاردنر" بأنه من الطبيعي أن نربط ما بين الصراع بين حورس و ست، وذلك العصر الذي ازدهرت فيه حضارة نقادة ، فبلغت قمته<sup>٤٢</sup>. هل لنا أن نفهم من وراء تلميحات "جاردنر" بأن حضارة ما قبل الأسرات في صعيد مصر، قد نتجت أثناء الصراع بين الإلهين ست (إله الصحراء الجدباء) وحورس الإله الطيب إله الخيرات ؟ أي أنه صراع بين الأقوام الليبية (الصحراوية) والأقوام المصرية المستقرة المزارعة ؟ وبالتالي تكون الأسطورة ذات دلالات تاريخية عميقة تعكس قصة صراع الأحداث التاريخية والسياسية، خاصة وأن أخبار الليبيين لم تنقطع في المصادر المصرية بعد ذلك، بل أن أخبارهم قد ترددت بشكل غير عادي ، حتى أمست شيئاً مألوفاً في تاريخ مصر الفرعونية...

<sup>42</sup> - ألن جاردنر ، المرجع السابق. ص. ٤٦٢.

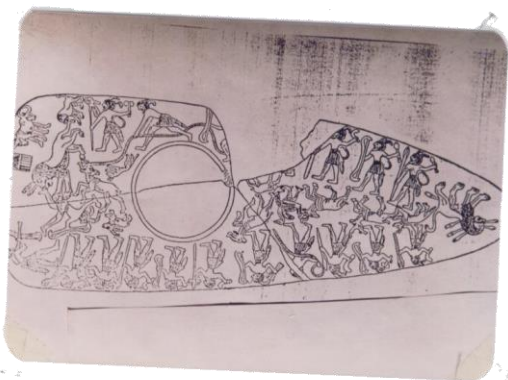


اللوحة رقم ٤ - ٢ -



اللوحة رقم ٤ - ب -





اللوحة رقم 1



اللوحة رقم 2